قلب الانسان ووسوسة الشيطان.. (٢)

في العدد الماضي تحدث فضيلة الشيخ سليمان المدني في محاضرته عن منهج مجاهدة النفس الشاقة واصول الشريعة من خلال حديثه عن كتا ب الحقائق حيث ذكر فضيلته ان قلب الانسان مثل القبة المفتوحة ترد اليها الانوار من كل صوب من سائر الحواس الخارجة والحواس الداخلة .

ويأتى الشيطان الرجيم فيسكن ذلك القلب ويوسوس للانسان، فيحاول الانسان بما أوتي من علم ومعرفة وحكمة من طرد الشيطان والافساح للملك لأن يسكن قلبه. وانهى فضيلته القسم الاول من محاضرته بالحديث عن مداراة الخلق وكونها مستحبة عند الشرع وهي لا تأتي عن غير طريق الاوامر الشرعية .

وفي هذا العدد يواصل حديثه في هذا الامر ....

ذكرنا ان الانسان ينظر الى فعله فيجد به جميلا ومنة على الناس .. في البداية كان العمل لله عز وجل ودخل به الشرك الان وبعد ان صار ما يفعله فيه جميل على غيره ضاع عليه اصل ذلك العمل .

وهو من أين أتاه بهذا العمل ؟

أتاه من أصل صحيح .. ويأتى لبقية العلماء الآخرين القائمين بنفس العمل - ربما انسان الله «سبحانه وتعالى» يعط المحبوبية عند الناس اكثر من من انسان لأن دواعى المحبوبية كثيرة فيقوم بحسده حتى يتولد عنده مقام المقارنة مع الآخرين وهنا دخل له عنصر الحسد **(ان الحسد ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب)** وهكذا يجر هذا المسكين عن مقام القرب الى الله من حيث لا يشعر ..

فالشيطان أذن يبقى فى وسوسته - في اعماله ... ولا تظنوا أنه يأتى دائما من طريق تحسين الكبائر لأن الكبائر لا تحسن عند مسلم سواء أن كان من المتقين أو من الفسّقة... الآن لو تأتى الى الزانى وتقول له «هل أن الزنى حسن ؟ - يقول «ليس حسناً» ولو أتيت السكير حتى فى أثناء سكره وتسأله «ما رأيك فى الخمر هل هو حسن - يقول - لا» ! واذا قلت له حلال يقول لك «لا ليس حلالاً» ! .

فإذن الشيطان لا يستطيع ان يزين العمل حتى لو دفعه او أثار له الشهوة فدفعه فى الكبيرة لا يقدر ان يزين له تلك الكبيرة - يدفعه اليها بسبب الشهوة يستغل الخنزير... الانسان الحاد المزاج - الجاهل فى القرآن «شديد الغضب» يسمى جاهلاً - الانسان كثير الجهل الذى تسبق يده لسانه كما يقولون - لو جئت وسألته هل أن هذا الفعل ملائم يقول لك لا ليس ملائما ولكننى «أغلب» فاذن الشيطان ماذا يفعل ؟

يثير الجهة الكلبية السبعية فيه فهولا يقدر يحسنه له ما دام مسلما أو مؤمنا وعلى الاقل ما دام عاقلا.. ما دام يملك عقله لا يستطيع ان يحسن له هذا الفعل - فاذن ما معنى قوله تعالى : **[وزين لهم الشيطان سوء عملهم فرأوه حسنا]** او **[كالذى زين له الشيطان سوء عمله فرأه حسنا]** زين له سوء عمله لانه اوهمه أنه يفعل ذلك بقصد الله... وفعلا هو أتى له من طريق الواجبات - المستحبات ولم يأت له عن طريق الموبقات ولم يأت له من طريق المنكرات لانه يعلم أنه لا يتمكن على هذا الانسان حتى مهما كان مرتكز المنكرات ما دامت فى قلبه العقائد الخمس لا يستطيع ان يقنعه بحسن المخالفات لتلك العقائد الخمس - لا ! ولذلك فإن العلماء لا يحكمون بنجاسة مرتكب الكبيرة ولا بكفره يحكمون بكفر ونجاسة المستحل لماذا ؟ .

لان الشيطان لم يستطع أن يزين له سوء عمله فيراه حسنا «انما يراه سيئاً» لكن الشيطان يستغل الشهوة - الهوى - حب الذات فيوقعه فى الموبقة او الكبيرة وهذا ليس تزيينا ! .

التزيين : هو أن يزين الشيطان للانسان الفعل المقصود به غير الله سبحانه وتعالى «فيجعله يتمادى فيه ويوهمه بأنه أنما يفعل ذلك قربة الى الله - فاذن : أن العمل بالاحكام الشرعية ينبغى دائما ان نحرص ان لا يكون فيها شيىء لغير الله سبحانه وتعالى» وبطبيعة الحال الله سبحانه وتعالى رحيم وكريم - وان الله سبحانه وتعالى اوجد هذه الاعمال الصغيرة والبسيطة لييسر بها الوصول الى المقامات الكلية العالية - هذا هو منهج الشريعة لكن ماذا يقول سبحانه وتعالى : **[وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة]** فقدم سبحانه وتعالى اخلاص النية لله على القيام بالصلاة وايتاء الزكاة لان الصلاة ما لم يكن فيها اخلاص لله سبحانه وتعالى لا تكون عبادة !

الدرس الثانى عشر

لفضيلة الشيخ

سليمان المدني

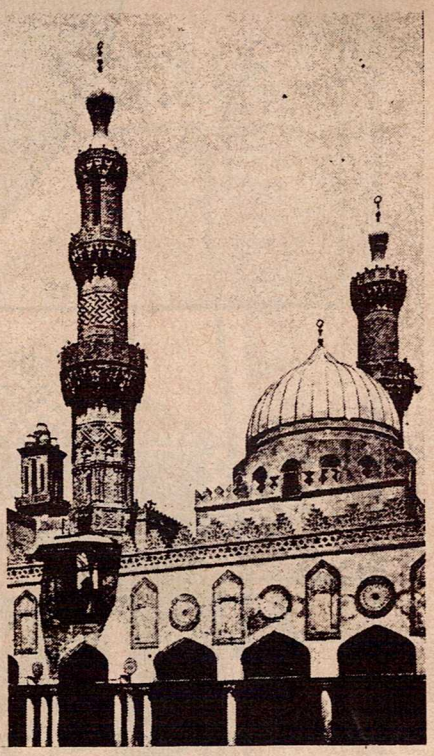

العبادة هى الطاعة :

العبادة فى الحقيقة معناها : الطاعة ....

عبادة الله معناها : طاعة الله **[وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون]** بمعنى ليطيعون فى الصلاة ـ الصوم ـ الزكاة ـ فعل الخير ترك الشر فعل المعروف ترك المنكر أنما سميت كلها مصاديق من مصاديق طاعة الله فاذا صارت من مصداقات طاعة الله سبحانه وتعالى تكون عباده واذا صارت لشىء آخر لا تسمى عبادة «صلاة الرياء» لا تسمى عبادة ـ العمل لغير الله لا يسمى عبادة ـ نعم ، هناك بعض الضمائر لا تنافى القربات.. أى هناك أنسان يقوم ويعمل شيئا ليس كله قربة الى الله فيه ضميمة أخرى لكن تارة هذه الضميمة تنافي القربة الى الله «سبحان وتعالى وتارة لا تنافى القربة لله «سبحانه وتعالى» والشيطان ماذا يفعل «الضميمة تنافى القربات» واذا كانت لا تنافي القربة لا تحقق غرضه فهذا انسان يشعر بالحر يريد ان يسبح فيقول طالما أننى ولا بد سوف اسبح لازيل الحر ـ لماذا لا أنوى بهذا الغسل غسل التوبة واحصل على الثواب فينوى بغسل التوبة ويحصل الثواب طبعا نية الحر أى أنه يريد ان يسبح عن الحر لا تنافى فيه التقرب الى الله لغسل التوبة.

مثلا غسل الجمعة يقول الرجل انا اشعر بالحر واليوم الجمعة وقلت طالما الامر كذلك اغتسل غسل الجمعة... وطالما اننى سوف اسبح لماذا أؤخر غسل الجمعة حتى الظهيرة ؟

هذه النية لا تنافى القربة الى الله.. هو لو لم يكن يشعر بالحر لن يقوم فى ذلك الوقت من المجلس انما يتركه الى الظهيرة او يتركه الى يوم السبت او الإحد او أى يوم آخر من أيام الاسبوع هذا اذا كان لا يتركه ـ لكن بما أنه حران فسوف يقوم به الآن ـ هذا لا ينافى القربة الى الله لانه لا يوجد عمل مقصود به شىء آخر لكن لو قام ليغتسل حتى يعلم الناس أنه يغتسل غسل الجمعة ـ فهل عندها نقول ان الضميمة لا تنافي وجه الله ؟

طبعا «لا» !

انها تنافى وجه الله سبحانه وتعالى... ولمنع الشيطان من التسول الى هذه الامور ورد فى الشريعة استحباب «صلاة النافلة» فى المنزل ـ يعنى إنسان يصلى الصلاة الواجبة فى المسجد فاذا أتى الى بيته صلى النافلة فى بيته ـ لماذا ؟

حتى لا يأتى أبليس ويدخل له بان يجعل فى قلبه حب رؤية الناس له وهو يؤدى اكثر مما اوجبه الله .

غرض إثبات العدالة :

طبعا صلاة «الفريضة» لا تكون الا فى المسجد ـ او يستحب ان تصلى فى المسجد استحبابا مؤكداً ـ لماذا ؟

لان فيها غرض إثبات العدالة... من لا يصلى فى المسجد ليس له على المسلمين ان يطالبهم باثبات عدالته حتى اذا كان عدلاً حتى لو كان قريب العصمة فى العدالة وهو لا يحضر مساجد المسلمين ولا جماعات المسلمين ليس له ان يطالب المسلمين بالشهادة بعدالته ولذلك جاء فى قضية انه من شروط العدالة حضور مساجد المسلمين وحضور جماعاتهم بخلاف صلاة النوافل مثلا لانها ليست دخيلة فى اثبات العدالة فلذلك حتى لا يدخل فيها الشيطان الله سبحانه وتعالى أمر النبى «ص» ان يبلغ أمته باستحبابها فى النوافل... واشارة الى تفسير آية من آيات القرآن عن أمير المؤمنين «عليه السلام» فى تفسير قوله تعالى **[وما تخفوا فى أنفسكم من شيء يحاسبكم الله عليه]** هذه الآية ماذا يستفاد منها ؟

طبعا كما قلنا ان النيات لا يؤاخذ الله عليها لو نوى الانسان السيئة هل يؤاخذ عليها ـ لا يؤاخذ عليها ! لو نوى الانسان الحسنة يثاب عليها حسنة فان فعلها أثيب عشرا ولو نوى الانسان السيئة لا يؤاخذ عليها ـ لو هم الانسان بالسيئة ثم اوقف العمل ولم ينفذه ولم يخرج ذلك الهم الى طريق العمل لا يؤاخذ عليه فما معنى قوله تعالى : **[وما تخفوا فى أنفسكم من شيء يحاسبكم الله عليه]** ؟

بطبيعة الحال : العمل القلبى طالما نحن نتكلم فى مقام القلب ـ العمل القلبى نوعان نوع من الاعمال القلبية غير إرادى ونوع من الاعمال القلبية ارادى ـ الهم بالمعصية تارة يكون غير ارادى «يغفل الانسان أقل من لحظة فيغلبه سلطان الشهوة فينظر المرأة الاجنبية» عمل ارادى هذا ؟

ليس عملاً ارادياً ... .

طبعاً بمجرد الهم يدرك الملك ان هذا الانسان هم بالمعصية «يارب أن عبدك هم بالمعصية أنظره فان فعلها فاكتبها عليه سيئة وان تركها فاكتبها حسنة فانما ترك لأجلى»... وهنا صار الترك فعلا يثاب عليه ـ لماذا ؟

لانه ناتج عن مجاهدة النفس ـ ناتج عن ذكر الله «سبحانه وتعالى» فاذن فى هذه الحالة لا يؤخذ عليه لكن لو ذهب يفكر فى فعل المعصية ويعد الطريقة والوسائل التى يستعملها فى ارتكاب تلك المعصية ـ فهل تقول ان هذا هم غير ارادى ؟

ربما يستغرق اياما وليالى.. وربما يبذل جهداً كبيراً ووقتاً كثيراً فى الاعداد لارتكاب تلك المعصية !

هذا الفعل النفسانى الا يعاقب عليه ؟

لا ليس ممكناً طبعاً.

لانه فى الحقيقة يعتبر هذا الفعل ارادياً ـ الله سبحانه وتعالى كلف البشر بالافعال سواء القلبية او القالبية «وكما يقول صاحب الحدائق»

لان تعريف العدالة عند صاحب الحدائق أخلاقى وليس فقهياً خاصة الرسالة العملية ـ الرسالة الصلاتية هو تعريف اخلاقى.

طبعاً ذلك فعل ولكنه فعل قلبي.. وهنا يؤاخذ عليه بدليل الآية الكريمة : **[وما تخفوا فى أنفسكم من شيء يحاسبكم الله عليه]** فان شاء العفو فله ان يعفو حتى لو ارتكب المعصية فى مجال الظاهر فى مجال الاعمال التى تحصل باركان الجسم فانه لله سبحانه وتعالى ان يعفو لاننا نقول ان الوعد والوعيد حق لكن الوعد خلفة فيه خوف يتنزه الله «سبحانه وتعالى» عنه والوعيد ليس فى خلفه خوف فى خلفه كرم ـ تفضل منة فلا يكون قبيحا وان الله «سبحانه وتعالى» أن يخلف وعيده يعفو عن المذنبين ـ فاذن له ان يعفو ولكن له أن يؤاخذ.. من هذه الآية نفهم أيضا بأن الفعل القلبى يؤاخذ عليه الانسان كما يؤاخذ على الفعل بالاركان وليس الروايات الواردة من انه اذا نوى المؤمن المعصية ولم يفعلها لم تكتب عليه وان فعلها كتبت عليه سيئة فى مقام الافعال الارادية وانما فى مقام الخطرات القلبية غير الارادية واما الخطرات القلبية الارادية التى تأتى بتفكير من الانسان واعمال نظر فهى فعل قلبى وان لم تكن فعلا قالبياً فتكون داخله تحت الاوامر والنواهي الشرعية ويشملها ان الحسنة فيها بحشد والسيئة بواحدة وينطبق عليها ذلك . على اية حال فى تفسير هذه الآية ورد عن أمير المؤمنين «صلوات الله وسلامه عليه» فى حديث قدسي ان الله سبحانه وتعالى عرض هذه الآية على جميع الانبياء وعلى جميع الامم فأباها كل الانبياء وابتها كل الامم... وقبلها نبينا محمد «ص» فعرضها على أمته فقبلتها... وعندما قبلها النبى «ص» وعرضها على أمته فقبلتها أوحى الله اليه **[يا محمد أنى عرضت هذه الآية على كل الانبياء وكل الامم فابوها ولم يقبلوها وعرضتها عليك فقبلتها وعرضتها على أمتك فقبلتها فبحقى لارفعنّها عنها !]** جزاء الامة ان تقبلها يرفع هذه الآية عنها لكن ليس فى كل شىء شيء . فى تسعة أشياء ذكرها النبى «ص» نتعرض لها فى المحاضرة القادمة ان شاء الله .